الحسن بن علي

سبط النبي وريحانة أهل بيته

رواية للفتيان

د. مصطفى عطية جمعة

الحسن بن عليّ سبط النبي

❖ اسم العمل: سبط النبي وريحانة أهل بيته الحسن بن علي (رواية للفتيان)
❖ الكاتب: د. مصطفى عطية جمعة
❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنــة
❖ رقم الإيداع: 2023 / 16054
❖ الترقيم الدولي: 978-977-86834-2-4

(جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها إلا
بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)

متون المثقف
للنشر والتوزيع

خالد عدلي
00201002688188
info.mothakf@gmail.com

(رواية للفتيان)

سبط النبي وريحانة أهل بيته

الحسن بن علي

رضي الله عنه

للكاتب
د. مصطفى عطية جمعة

متون المثقف
للنشر والتوزيع

قال الله تعالى:

{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

ريحانة النبيّ وقرة عين الزهراء وعليّ

ها هي المدينة المنورة، قد شَرُفتْ بقدوم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتعطرت دروبُها بأقدامه الشريفة، والتفّ حوله أهلُها، بعدما دخلوا أفواجا في الإسلام، واحتضنوا في مدينتهم الهادئةِ الصحابةَ المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة، مسارعين بالهجرة إلى المدينة، مؤازرين رسولهم الكريم، وبحثا عن أرض جديدة، يحمي فيها اللهُ سبحانه دينَه المنزّل على نبيه العظيم، وقد نال هذه الحظوة أهلُ " يثرب "، الذين غيّروا اسم مدينتهم ليصبح "المدينة المنورة "، وليحملوا لقب " الأنصار "، لنصرتهم الرسول وصحبه الكريم.

كم كان المشهد رائعا! حين تسابقَ الأنصار مرحبين بالنبي (صلى الله عليه وسلم)، ومتآخين مع إخوانهم المهاجرين، عملا بوصية الرسول لهم: " تآخوا في الله أخوينِ أخوينِ ". وبدأ الرسول بنفسه، حيث نظر إلى ابن عمه أبي طالب، عليا، وقال له أمام جموع المسلمين المتحلقين حوله:

- أنت أخي.

كان شرفا عظيما يناله عليّ وهو الذي تربّى في كنف الرسول، حين أخذه الرسول صغيرا من عمه أبي طالب، فعاش في بيت الرسول قبل البعثة المشرّفة، وأكل من طعامه، وحين رأى الصبي " علي" الرسول وزوجته السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) يصليان، فسألهما عن ركوعهما وسجودهما، فأخبره الرسول – وهو يعلم حق العلم نجابته وذكاءه – أنه دين جديد يدعو إلى وحدانية الله تعالى، ونبذ عبادة الأصنام، فولج الإيمان شغاف

قلب هذا الصبي ذي السنوات العشر، وهو الذي كـرّم الله وجهـه فلـم يسـجد لصـنم، ولا عبد وثنا، فكان أول من أسلم من الصبيان.

كما أنه نام في فراش النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجـرة، وتغطّـى بـبرده الشرـيف، وكان معروفا بشجاعته الفائقة في الغزوات والسرايا.

***

وها هو " عليّ " ينال شرف مصاهرة ابن عمه، النبي محمد (صلى الله عليه وسـلم)، ويـتزوج من ابنته "فاطمة الزهراء " (رضي الله عنهـا) ؛ سـيدة نسـاء العـالمين ؛ كمـا أخبرنـا عنهـا رسولنا الكريم، وسكن الزوجان في بيت قريب من بيت النبوة، المجاور للمسجد النبـوي الشريف الذي بناه الرسول وصحابته الأبرار، وجعلـوه دار علـم وعبـادة وطاعـة، ومكانـا لاستقبال الوفود وعقد العهود، ومركزا للشورى في أمور الدولة.

عنـدما خطـبَ الإمـام علي فاطمـةَ، لـم يكـن يملـك إلا درعا، اضـطر إلى بيعهـا ومعهـا بعـض متاعـه، وجمـع أربعمائـة وثمـانين درهمـا، أحضرـها إلى الرسـول، فـأمره الرسـول أن يجعل ثلـثي المبلـغ لشرـاء الطيـب والعطـور، والثلـث البـاقي لشرـاء الثيـاب، وأعطـاه جرة ماء من عنده.

وحين دخل الرسول على فاطمة، وكانت قد فوجئت بخطبة عليّ لها، وجدها تبكي، ويبـدو أن سبب بكائها حياءٌ، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم):

- ما لكِ تبكين! فوالله لقد أنكحتك (زوجتك) أكـثرهم علمـا، وأكـثرهم حلمـا، وأوّلهم سلما.

ثم أردف مبتسما:

- زوجّك الله ورسوله.

فطاب خاطر الابنة، فزواجها بوحي من الله ومباركة من رسوله، وبدأت في إعداد ما يلزمها في عرسها، وأخواتها وأمهات المؤمنين معها. وكان زواجها في شهر المحرّم في العام الثاني من الهجرة.

***

في العام الثالث للهجرة، استقرت أحوال المسلمين في المدينة، ونعموا بالاستقرار بعد نصرهم المؤزّر على كفار مكة في غزوة بدر التي كانت في العام الثاني من الهجرة، وكان الإمام علي في طليعة المجاهدين، الملازمين للنبي في إقامته وترحّله وغزوه، ويعيش مع زوجته فاطمة في سعادة وهناء، يرفرف الحب على بيتهما الصغير، انشغلت فاطمة بشؤون البيت، وخدمة الزوج المجاهد العالم، وكان الرسول شديد التعلّق بها فهي أصغر بناته، فإذا عاد من سفر، يذهب إلى المسجد فيصلي ركعتين لله تعالى، ثم يسرع إليها، ويقبّلها، قبل أن يذهب إلى بيوت زوجاته.

وعندما يحين وقت الصلاة، يغدو (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت فاطمة، ويمسك الباب هاتفًا:

- السلام عليكم أهلَ البيت، الصلاة، الصلاة..

ثم يتلو الآية الكريمة: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا}.

فيلحق عليّ به، وتتهيأ فاطمة للصلاة.

مرت شهور، وجاءت البشرى أن الابنة فاطمة حامل، وتوالت الشهور، وعينا عليّ وفاطمة، تترقبان ما سيجود عليهما به الله سبحانه من مولود أيكون أنثى تحمل تقوى فاطمة وورعها، أم ذكرا يحمل عِلم علي وشجاعته؟

ولم يكن أمامهما إلا الدعاء، فللّه الحمد والمنّة.

***

أقبلت الصحابية الجليلة " أم الفضل " وهي لبابة بنت الحارث الهلالية، زوجة العباس بن عبد المطلب، ومعروف أنها أنجبت ستة ذكور للعباس، عم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكان الرسول يكنّ لها إعزازا كبيرا، فهي أول سيدة تسلم بعد زوجته الأولى السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، واعتاد النبي زيارتها من حين لآخر، وقد ينام قيلولته في بيتها.

أتت " أم الفضل " (رضي الله عنها) إلى الرسول، تخبره عن رؤيا رأتها في منامها، قائلة:

- يا رسول الله، رأيت كأن عضوا من أعضائك في بيتي.

ابتسم النبي، وفهم دلالة رؤياها في الحلم، وقال:

- رأيتِ خيرا! تلد فاطمةُ غلاما، فترضعيه بلبن قثم.

صدق رسولنا، فإن فاطمة هي الوحيدة من آل البيت، التي تنتظر مولودا؛ اقتربت ساعة قدومه، وكانت رؤيا أم الفضل مبشّرة أن القادم ولد.

ابتهجت أم الفضل، فابنها الرضيع " القثم " سيكون أخا في الرضاعة لابن فاطمة بنت الرسول، يالها من بشرى! ويا له من فضل!

***

في ليلة النصف من رمضان، للسنة الثالثة من الهجرة، حضرت ساعة ولادة فاطمة، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأسماء بنت عميس وأم سلمة (رضي الله عنهما):

- أحضرا فاطمة، فإذا وقع ولدها ورفع صوته صارخا، فأذّنا في أذنه اليمنى، وأقيما في أذنه اليسرى، فإنه لا يفعل ذلك بمثله، إلا عصم من الشيطان، ولا تحدثا شيئا حتى آتيكما.

وبالفعل ذهبت الصحابيتان الجليلتان إلى فاطمة، فما زالتا معها، حتى وضعت بسلامة الله صبيا جميلةً ملامحه، بديعٌ محيّاه.

وحين جاء من يبشّر الرسول بما وضعت ابنته، انطلق الرسول فرحا، حتى جاء بيت فاطمة، وقال لزوجها علي:

- أروني ابني.

وأمسك الطفل الرضيع، وراح يتأمل ملامحه، متسائلا:

- ما سميتموه؟

بادر علي مجيبا:

- سميناه " حربا ".

تعجب الرسول من الاسم وشدّته، فهو يعلم مدى شجاعة " علي " في المعارك، ومبارزته لصناديد الكفر وطغاته، وقتله إياهم، فابتسم بحنو، وقال:

- بل هو " الحسن ".

ابتهج الحاضرون بهذا الاسم الجميل " الحسن "، الذي حمله السبط الأول للرسول من السيدة فاطمة الزهراء، وابتهجت أكثر، حين أنبأ الرسول أن كنيته " أبو محمد "، على اسم جده الكريم.

حمل النبي " الحسن " الرضيع، وقرّب أذنه من شفتيه الطاهرتين، ورفع صوته بكلمات الآذان في الأذن اليمنى، ثم كلمات الإقامة في الأذن اليسرى، وطلب تمرةً، فأتوه بها، فمضغها مضغا يسيرا في فمه، ثم حنّك بها فم الرضيع، ليختلط لعابه الطاهر بلعاب سبطه الحسن.

وما إن بلغ الوليد " الحسن " يومه السابع، حتى قامت فاطمة بحلق شعره، وتصدقت بوزنه ذهبا، فيما قام والده " علي " بعمل عقيقة، دعا فيها أهل البيت والصحابة عليهم الرضوان.

وقد أطلق الرسول أيضا اسم " الحسين " على شقيقه الثاني بدلا من " حرب " كما أراد عليّ، وقال الرسول أمام الناس:

- إنهما سيّدا شباب أهل الجنة.

لذا كانت فاطمة تعتز باسمي ولديها، وتناديهما يا حسنان أو يا حسينان.

وحين تخلو بالحسن، تحتضنه بحب، ثم توقفه على قدمين، وترقّصه في طرب وتنشد:

أشبه أباك يا حسن، واخلع عن الحق الرسن
واعبد إلها ذا منن، ولا توالِ ذا الإحن

وقد انكبت على خدمة أولادها، تعلمهما ما تيسر لها من معين الإسلام وقيمه.

***

راح أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يتعهدون الحسن بالرعاية، وهو ينمو، ويحبو، ثم يمشي ويركض ويلهو في طرقات المدينة، وعينه على بيت النبوة، حيث جده الرسول الأعظم، يحنو عليه، ويداعبه، ولا يفارقه إلا لسفر أو جهاد. وفيما تفتح ذهن الصغير على آيات القرآن تتلى على مسامعه من أمه فاطمة، التي كانت عابدة تقية، صوامة في نهارها، قوّامة بالصلاة في ليلها، وهي لا تفتأ تعلّم ابنها فقه الدين، وأسس العبادة، الذي بدت نجابته وذكاؤه واضحين لكل عين، والصغير متلهف لما تلقّنه أمه إياه، وحين يتطلع إلى أبيه " علي "، يرى الإسلام جهادا ودعوة وبطولة وعلما متجسدا في شخصه، فلله أنت أيها الطفل النجيب! نلت شرف النسب والأصل والانتماء، ونهلت من غدير الإيمان المتدفق من بيت جدك النبي، ورحيق أمك الزهراء، وعطر والدك علي كرّم الله وجهه، وما تجود به زوجات النبي.

***

وذات يوم، خرج أبو بكر رضي الله عنه من المسجد، وقد صلّى العصر، فرأى الحسن يلعب، فأخذه، وحمله على عنقه، وهو يقول:

- بأبي شبيهٌ بالنبيّ، ليس شبيها بعليّ.

وعن مقربة منه، كان الإمام علي واقفا، يراقب الموقف، يهز رأسه ويضحك، وهو يغبط ابنه الصبي، لأنه نال ملامح الرسول الجد، بما فيها من هيبة ووقار، ووسامة وجمال، تجعل كل الناظرين منجذبين إليه. وهو ما أكده خادم الرسول " أنس بن مالك " رضي الله عنه، والذي امتد به العمر، بعد وفاة مخدومه النبي، فكانت الأجيال التالية تسأله عن هيئة الرسول وملامحه، فلم يكن يصف لهم، بل يرد بثقة:

- لم يكن أشبه برسول الله من الحسن.

فينطلق الناس إلى الإمام الحسن، الذي كان ملء السمع والبصر، يتأملون محيّاه الهادئ، وشعره الطويل شديد السواد، ووجهه المشع سناء، وعيناه المتلألئة نورا، يستحضرون الرسول الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى منذ سنوات طويلة، إلا أن نسبه امتد في أبناء فاطمة وعليّ، واتصل بأحفادهما.

***

وكان أبو بكر الصديق حاضرا في المسجد، يستمع إلى خطبة للنبي (صلى الله عليه وسلم)، والحسن بجانبه على المنبر، والرسول مقبلا على الناس بنظراته مرة، وعلى الحسن مرة أخرى، وقال:

- إن ابني هذا سيد، ولعل الله عز وجلّ أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

ولأنه الرسول، يعلم من الله ما لا يعلمه البشر، فقد كان يرى بنور الله المستقبلَ، وما ادّخره الله للإمام الحسن من خير، ليكون سببا في وحدة المسلمين بعد تفرقهم، واجتماع كلمتهم بعد تشتتهم، ولتصدق عليه مقولة جده، وتكون آيةً من آيات الله سبحانه، جرت على لسان نبيّه، وتحققت على يد سبط النبي.

الفصل الثاني
ربيبُ النبيّ وحافظُ سنّته

كم كانت سعادة الرسول بالحسن كبيرة، مثل سعادته بشقيقه الحسين،،فهو شديد الحبّ لهما، وهذا ما جعلاهما يلازمانه دوما، يلاعبهما، ويعلّمهما، ويؤدبهما منذ نعومة أظفارهما. فإذا اجتمع الصبيان عنده، يجلسهما على فخذه، ويقول:

- اللّٰهُمَّ إني أحبهما فأحببهما، وأحبب من يحبهما.

إنه الجد، الذي اكتحلت عيناه بحفيدين، جمعا من الوسامة والشبه به الكثير، وقد جاءاه من أصغر بناته، وأقربهن لقلبه، التي أسماها " سيدة نساء العالمين "، لورعها، وشدة تقواها، ولتعلقها الشديد بوالدها الرسول. فإذا كان الشقيقان ينهلان كل يوم من علم والديهما، إلا أنهما يتشربان الإسلام لحظة بلحظة، من جدهما العظيم، فكل ما يبدر منه، من كلمات أو إشارات أو أفعال، يتخذها الناس نبراسا لهم، وسننا وطرائق في حياتهم، فهو نبيهم، ومعلمهم، وهاديهم، وهو قائد الأمة، وزعيمها، ومرشدها للخير.

فدأب الحسن والحسين على مصاحبة جدهما، يشاهدانه وهو يتلقى الوحي من الروح القدس " جبريل " عليه السلام، حيث ينتفض جسده، ثم تنساب الآيات القرآنية على لسانه، فترطب قلوبَ صحابته، ويتلقفها الناس، يحفظونها ويرددونها، ويصّلون بها.

فيا له من فضل ناله الحسن منذ حبوه الأول، حيث امتلأت مسامعه بآيات القرآن، من فم الرسول، وآل البيت الأبرار، فيختزنها في فؤاده.

***

قدم الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه) لزيارة الرسول،،الرسول في صلاته ساجدا، فركب الصغير الحسن على رقبة جده، ثم على ظهره، فيظل الجد ساجدا حتى ينزل السبط. ثم يأتيه وهو راكع، فيفرج الجد ما بين رجليه، ليدخل الحفيد ثم يخرج كما شاء.

وها هو أحد الرجال، يشاهد الرسول حاملا الحسن على عاتقه، ويسير به في الطرقات، فهتف الرجل مغتبطا هذا الطفل الذي تشرّف بحمل الرسول له:

- نعم المركب ركبتَ يا غلام.

فنظر إليه الرسول، وأسرع في الرد:

- ونعم الراكب هو،

***

وفي إحدى طرقات المدينة، كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) واقفا مع عبد الله بن مسعود يتحدثان، فابن مسعود شغوف بالعلم، عاشق لسنة الرسول وكلماته، فإذ الرسول يتوقف عن الحديث، فينتبه ابن مسعود، فقد أسرع الرسول من مكانه، متلقفا الحسن والحسين وكانا مارينِ في الطريق، ويقول لمن معهما:

- هاتوا ابنيّ أعوذهما بما عوّذ به إبراهيمُ ابنيه: إسماعيل وإسحق.

ثم ضمّ الصبيين إلى صدره، وهمس:

- أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامة.

***

ويدلف الشقيقان إلى المسجد النبوي، مشتاقينِ إلى جدهما، فيجدانه يصلي بعض النوافل، والناس في المسجد متفرقون، فأسرعا يتوثبان ظهر الرسول، وهو ساجد على نحو ما

اعتادا، فأقبل الناس يبعدونهما برفق، فما إن فرغ الرسول من تشهّده الأخير، حتى التفت إلى الصحابة قائلا:

- دعوهما (اتركوهما)، بأبيّ وأميّ مَن أحبّني فليحبْ هذين.

***

أما أبو هريرة رضي الله عنه، فينظر إلى الرسول الأعظم ذات يوم، وهو خارج من بيته حاملا السبطين، هذا على عاتقه الأيمن، والثاني على العاتق الأيسر، وقد أسندهما بيديه الشرفيتين، حتى وصل إلى الصحابة الواقفين متأملين هذا المشهد، فقال وهو يشير إلى حفيديه:

- من أحبهما، فقد أحبّني، ومن أبغضهما، فقد أبغضني.

***

وحين أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة، وراح يمضغها، انتبه إليه الرسول، وأسرع ونزعها من فمه، والطفل مندهش لما حدث من جده، فتساءل بعض الناس متعجبين:

- يا رسول الله، ما كان عليكَ من هذه التمرة؟!

فأجاب الرسول بيقين:

- إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة.

فالصدقات للفقراء والمساكين، وليست لآل بيت النبي.

***

ويطرق " أسامة بن زيد " رضي الله عنه باب النبي – ذات ليلة - ليقضي منه بعض الحاجة، فيخرج إليه الرسول، وهو مغطّى بعباءة واسعة، فلما فرغ أسامة من حاجته،

كشف النبي عباءته، فإذا السبطان الكريمان: الحسن والحسين، ينظر الرسول لأسامة، ثم يحتضن الصبيين ويقول:

- هذان ابناي، وابنا ابنتي.

كانت هذه الكلمات شرفا فوق الشرف، يناله السبطان، فهما وإن كانا من صلب علي، إلا أنهما التحقا ببنوة الرسول، لذا كان الناس ينادون على أيٍّ منهما بقولهما: يا ابن المصطفى.

ووقفت أم سلمة رضي الله عنها لبعض شأنها بالقرب من المسجد النبوي، فلمحتِ الرسول راكبا ناقته، وعليّ بن أبي طالب خلف ظهره، ثم نادى فاطمة الزهراء، وابنيها الحسن والحسين، فغطاهما بكساء بيده الشريفة، ثم قال والناس تشهد على قولته:

- هؤلاء أهل بيتي، فاذهبْ – يارب – عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا.

وذات يوم، كان الرسول في بيتها، فدخلت الخادمة عليه، قائلة له:

- إن عليا وفاطمة بالسّدة (أي خارج باب البيت).

فقال الرسول لأم سلمة يستأذنها: قومي، فتنحّي عن أهل بيتي.

فقامت أم سلمة، وتنحّت قريبا منه، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان، فأخذ الرسول الصبيين في حجره فقبلهما وأجلسهما، وعانق عليا بإحدى يديه، وفاطمة باليد الأخرى، ثم قبلها، وأعطى عليا كساء أسود، ثم قال:

- اللّٰهُمَّ إليك لا إلى النار، اللّٰهُمَّ إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي.

فقالت أم سلمة:

- وأنا معهم يا رسول الله؟

قال: أنتِ على مكانك، أنتِ إلى خير.، فأُثلِج صدرُها بما قال.

***

وجاء رسول الله ذات يوم إلى بيت فاطمة، ليرى سبطيه، قائلا:

- أين ابناي؟

فقالت فاطمة وهي تعلم شوق والدها اليوميّ لحفيديه:

- ذهب بهما علي.

فخرج الرسول من البيت باحثا عنهم، وما زال يلفّ في طرقات المدينة وجنباتها حتى وجدهم في أرض مشرّبة بالماء من كثرة زرعها، وهم يأكلون بعض التمر، فقال الرسول بحنو:

- يا علي، ألا تقلب (تُرجِع) ابنيّ قبل الحرّ.

كم كانت الكلمات التي سالت على لسان النبي رقيقة، تشي بأحاسيس الرسول المتدفقة نحو أحفاده، استشعرها عليّ، فأخذ أولاده ليلاقي الرسول.

وكانت السيدة فاطمة، تأخذ السبطين إلى بيت والدها، حين لا يزورهم في يومه، فيندفع إليه الولدان في شوق شديد، فإذا وصلا إليه، وضع الرسول الحسن على فخذه الأيمن، والحسين على فخذه الأيسر، ويقبلهما، ويظل يلاعبهما، ويمضي الوقت، وترغب فاطمة في العودة لبيتها، والولدان غارقان في لهوهما مع الرسول، فتعلن أنها ستعود وحدها، فيقفز الصبيان فرحا، لأنهما سيبقيان مع الجد، وما إن يغلبهما النوم، حتى يمدّ الرسول ذراعيه الشريفتين، لينام كلٌّ منهما على ذراع، هانئين في معيّته صلى الله عليه وسلم.

وكانت اللعبة المفضلة للولدين عند جدهما ؛ أن يتصارعا، كل منهما يريد أن يسقط الآخر على الأرض، والرسول يبتسم، ويحثّهما على المزيد من القوة، لعل أحدهما يغلب، ومن ثم ينادي على الحسن:

- هيا يا حسن.. هيا يا حسن..

ويكون أبوهما حاضرا، فيتعجب من إصرار النبي على تشجيع الحسن دون الحسين، فيقول متعجبا:

- يارسول الله، .. على الحسين!

أي تشجّع الحسن على إسقاط الحسين، ولا تشجع الحسين بدوره. يبتسم الرسول، ويُعلم الإمام عليا:يا علي، إن جبريل يقول: ويا الحسين.

أي أن جبريل حاضر في هذا الموقف، الرسول يدفع الحسن، وجبريل يشجع الحسين، فيا له من مشهد يحظى فيه السبطان برعاية الرسول وجبريل.

***

وسافرت فاطمة الزهراء مع الرسول وعدد من صحابته الكرام، وفي الطريق سمع رسول الله صوتي الحسن والحسين وهما يبكيان، وكانت أمهما في مقدمة القافلة، تحمل أبناءها، فدفع الرسول ناقته، حتى اقترب من خبائها، وسألها:

- ما شأن ابنيّ؟

فردت فاطمة: العطش..

وكان الماء شحيحا، وجفّت حلوق القوم. فأمسك الرسول " شنة " أي وعاء يتوضأ فيه، ونادى في الناس:

- هل أحد منكم معه ماء؟

فاندفع الناس يبحثون عن الماء فيما معهم من قُرَب وآنية، إلا أن كفوفهم خرجت خاوية، فنظروا آسفين إلى الرسول. قال الرسول لفاطمة:

- ناوليني أحدهما.

فناولته فاطمة الحسن من خبائها، فحمله الرسول، وضمه إلى صدره، وصوت نشيجه عال، فأخرج الرسول لسان الحسن، وراح يمصه، حتى ابتلّ لسانه، وسكن الطفل وهدأ، وفعل نفس الأمر مع الحسين، وواصلت القافلة المسير، حتى وصلت لأقرب بئر ماء، فوقفت للتزود به.

***

وفي زيارة لرسول الله من زياراته المتكررة لمنزل ابنته فاطمة، دخل عليها، فوجد زوجها عليا نائما، وابنيها يلعبان بجانبها. فأشار الحسن إلى ناقة لهم خارج البيت، فأسرع الرسول، وحلب من لبنها في إناء، ثم أعطاه للحسن، إلا أن الحسين نازعه، وسعى في أخذ الإناء، فبكى الحسن، فقال الرسول للحسين باسما:

- يشرب أخوك، ثم تشرب.

فقالت فاطمة: كأنه آثر عندك منه!،أي: كأنك تفضل الحسن على الحسين.

فنفى الرسول: ما هو بآثر عندي، وأنهما بمنزلة واحدة، وأنكِ وهما وهذا المضطجع (يقصد الإمام علي النائم) معي في مكان واحد يوم القيامة.

فما زال مع الحسن حتى شرب، ثم أعطى الحسين الذي غار من أخيه، فشرب، وضحك الصبيان وعاد للهوهما مع الرسول.

***

وكان رسول الله يخطب في المسجد، وإلى جانبه الحسن، فكان ينظر إلى الناس مرة، ثم يتطلع إلى الحسن مرة أخرى، فوجّه أنظار الناس إلى الحسن الصغير، وهو يقول: ابني هذا سيد شباب أهل الجنة.

ويؤكد هذا الشرف العظيم الذي ناله الحسن، أنه – صلى الله عليه وسلم – خرج من بيته ذات يوم، وقال للناس من حوله، والحسن بجانبه:

- من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنّة فلينظر إلى الحسن بن علي.

***

انكب الحسن - صبيا - على تلقي العلم، فنهل من القرآن حفظا، وعمل بما حفظ من آيات، وكان أبواه من ورائه يعلمانه، ولا عجب من ذلك، فأبوه " علي بن أبي طالب " مرجع في الشريعة وعلوم القرآن وقضايا الناس، وأمه الزهراء قنديل يتلألأ هدى وتقوى، وقد أورثت ابنها الأكبر – الحسن – ملامحها وهي كانت الأكثر شبها بأبيها المصطفى، وأعطته كثيرا من وقتها، وعملت على ترقية عقله، وتقوية جوانب نفسه.

فأدرك الحسن الكثير من علوم الإسلام، غير ما تلقاه من جده النبي، الذي كان يرعاه رعاية مميَّزة وخاصة، اختزنها الحسن في قلبه، وحفظها عقله، ورددها لسانه، كلما سئل عن جده وعلمه، وكيف كان يحبه حبا جما.

***

لقد كان الحسن يغدو – وعلى صغر سنه – إلى مجلس الرسول في المسجد، والصحابة متحلقون حوله، فيجلس ويصغي منتبها إلى حديث جده، حتى إذا انتهى، انطلق الحسن إلى أمه، فيخبرها بلسان فصيح بكل ما دار من حديث النبي (صلى الله عليه وسلم). ثم يأتي الإمام علي، فتخبره فاطمة بحديث رسول الله، فيتساءل متعجبا:

- من أخبركِ بهذا؟

- ابنك الحسن.

فيزداد الإمام علي حبورا، وتنشرح نفسه سرورا، كيف لا؟ وابنه الأكبر راوٍ لسنّة جده، وعقله صاف متطلع دوما للعلم والهدى.

كان الحسن يرى أمه الزهراء كثيرة الركوع والسجود والدعاء، لها محراب صغير في منزلها، تلوذ به كلما وجدت فراغا في وقتها، ويلمحها الحسن مرةً، وقد رفعت يديها بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات، وتسمّي بعضهم، مكثرة في طلب الخير لهم، ولم تدعُ لنفسها بشيء. فلّما انتهت، اقترب منها الحسن متسائلا:- يا أماه، ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟!

أضيء وجه الزهراء، وهي تحتضن صبيها:

- يا بني، الجار ثم الدار.

ففهم الابن مراد قولها، إنها تدعو للمؤمنين الذين سيصاحبونها في دار الميعاد، فهم جيرانها في جنة الخلد.

***

صلّى الرسول (صلى الله عليه وسلم) العصر، فلما كان في الركعة الرابعة، أقبل الحسن والحسين، ركبا ظهره كعادتهما، فلما سلّم على اليمين واليسار بعد تشهده الأخير، حمل الحسن على كتفه الأيمن، والحسين على الأيسر، ثم قال:

- أيها الناس، ألا أخبركم بخير الناس جدًا وجدة؟ ألا أخبركم بخير الناس عمّا وعمة؟ ألا أخبركم بخير الناس خالا وخالة؟ ألا أخبركم بخير الناس أبا وأما؟

إنهما الحسن والحسين.. جدهما رسول الله، وجدتهما خديجة بنت خويلد، وأمهما فاطمة بنت رسول الله، وأبوهما علي بن أبي طالب، وعمهما جعفر بن أبي طالب، وعمتهما أم هانئ بنت أبي طالب، وخالهما القاسم بن رسول الله، وخالاتهما: زينب، ورقية، وأم كلثوم، بنات رسول الله.

وواصل (صلى الله عليه وسلم) كلامه، والصحابة منصتون لما يقول:

- وجدهما في الجنة، وأبوهما في الجنة، وأمهما في الجنة، وعمهما في الجنة، وجدتهما في الجنة، وخالاتهما في الجنة، وهما في الجنة، ومن أحبهما في الجنة ".

***

واعتاد الحسنان عندما يريان جدهما الرسول، كانا يناديان: يا أبتَ، في افتخاز واعتزاز بأبوة الرسول لهما. فإذا رأى الحسن أباه عليّا، يناديه: يا أبا الحسن، ونفس الأمر مع الحسين، ينادي: يا أبا الحسين على أبيه علي.

وعندما انتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى جوار ربه تعالى، بات السبطان يناديان والدهما: يا أبتِ.

في محل الوضوء بالمسجد، لمح الحسن والحسين رجلا كبير السن، لا يحسن الوضوء، فلا يتم غسل الأعضاء، مما يبطل وضوءه. شعرا بالحرج وهما يقدمان على توجيه النصح لهذا الشيخ. فارتكنا جانبا وفكرا في الأمر، وسريعا ومن خلال لغة الأعين، تقدّم الحسين، وراح يتوضأ بحركات سريعة، وتطايرت قطرات الماء من كفّيه وساعديه، فنظر إليه الحسن غاضبا، وقال:

- أنت تخطئ في الوضوء يا حسين.

توقف الحسين، ونظر لأخيه، وقال ساخرا:

- أنا لا أخطئ في شيء، لقد غسلت كل وجهي ويديّ وقدميّ.

هتف الحسن به، وأمارات الجد على وجهه:

- لابد أن تغمر بالماء كل عضو تغسله، ولا تتعجل.

رد الحسين بعزم: أنا لم أفعل خطأ، لنجعل أحدا يحكم بيننا.

قال الحسن: ما دمت غير مقتنع، ليحكم أحد الكبار بيننا.

ثم نظر إلى الشيخ الكبير، الذي كان يراقب المشهد بين الصبيين، قال الحسن:

- احكم بيننا أيها الشيخ، إن أخي يتوضأ، ولكنه لا يغسل مواضع الوضوء كما هو واجب.

قال الحسين:انظر يا شيخ إلى وضوئي ووضوئه، واحكم أي الوضوئين أحسن؟

فتوضآ أمامه، والشيخ يمعن في فعلهما، فانتبه إلى قصوره،

ابتسم الشيخ، وقال بحنان لهما:

- كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن أنا الشيخ الجاهل الذي لا يحسن، وقد تعلمت منكما الصحيح.

وأردف الشيخ ممتنا لهما:

- بارك الله فيكما، وجعلكما ذخرا للإسلام.

***

مات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وترك الحسن في الثامنة من عمره، وعلى قدر ما نهل الحسن من جده، على قدر ما أسلم نفسه لأبيه عليّ، الذي كان بحرا زاخرا في العلم، مما جعل ابن عباس يقول عنه:

- لقد أُعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وايم الله لقد شاركم في العشر العاشر.

فقد كان علي حافظا للقرآن، فقيها، عارفا بسنة النبي، وأقوال الصحابة، غير ما قدم من بطولات وجهاد ؛ شهد له بذلك القاصي والداني.

وكان الإمام علي يقول في ثقة من الله:

- أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فو الله ما من آية في كتاب الله عز وجلّ إلا وأنا أعلم ؛ أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل.

وكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين (رضي الله عنه) يقول:

- لولا عليّ، لهلك عمر.

وكان الحسن يعي كل هذا، فيلازم أباه دائما.

***

مرّت ستة أشهر على وفاة الرسول، وتماسكت كثيرا ابنته الزهراء، خاصة أن رسول الله همس لها في مرض وفاته مرتين، في المرة الأولى بكت بحرقة، لأن الرسول أخبرها بدنو انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وفي المرة الثانية هدأت وطابت نفسها لأن الرسول أخبرها أنها ستكون أول اللاحقين به بعد وفاته بأشهر قليلة، وستكون معه في جوار رب العالمين.

وكانت فاطمة في يومها الأخير، قد غسّلت ولديها الحسنين، وطلبت منهما الخروج لزيارة قبر جدهما (عليه الصلاة والسلام) ثم اغتسلت هي وتطيبت، وتوضأت وصلّت، واتخذت مجلسها أمام القبلة، وأخبرت خادمتها أنها ستلقى الله تعالى بعد قليل، فإذا جاء زوجها فليدفنها بحالها وثيابها، ثم نطقت الشهادتين..

حين حضر الإمام عليّ، رأى زوجته مطبقة العينين، راضية القسمات، فأخبرتها الخادمة بما قالت، فترقرقت دمعات من عينيه، فقد صدقت نبوءة النبي لها، ونادى الصحابة والناس فأقبلوا، وتهيأوا لحمل ابنة نبيّهم إلى مثواها الأخير.. تسلل الحسن وسط الجمع، ليلقي نظراته الأخيرة على أمه المسجّاة، ووقع عليها يقبلّها، ويبكي...، فاقترب منه والده، واحتضنه، مصمما أن يعوض ابنه الصبي بعدما فقد جدا رحيما، وأما عطوفة.

***

ما أروعَ سيرة السبطين وتربيتهما! لقد نهلا من نبع القرآن حتى ارتويا بأحكامـه، وأخـذا من سنّة جدهما المصطفى حتى شبعا، فصارا علامتين، يستهدي بأيهما كل مـن أراد طاعـة الله، ونيل رضوانه، وباتـا في شـبابهما مقصـدا لـكل طالـب علـم، مبتغيـا معرفـة هـدي الإسلام.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

زهرة شباب قريش

كبر الحسن بن علي (رضي الله عنه) وصار من شباب الإسلام المشهود لهم بحسن الدين، ومن كان يشاهده، يستحضر هيئة النبي (صلى الله عليه وسلم) وملامحه، فقد كان الحسن أبيض اللون، مشرّبا بحمرة في الوجه، أدعج العينين أي: عيناه واسعتانِ مع شدة سوادهما، شعره غزير، منسدل على أذنيه، قوي البنيان، عظيم الجسم، غير ضعيف ولا سمين، لحيته كثيفة، وشعره أجعد، وخداه سهلان، ربعة فليس بالطويل ولا بالقصير، مليح القسمات. فمن رآه تعلّق به، فصار محط أنظار أهل المدينة، ويذكر أهل السيرة والتاريخ والعلم أنه " كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم في الدنيا"

***

شهد الناس للحسن بالتقوى والعلم والورع، وأنه صاحب فضل، وحُسن خلق، فهو عذب الروح، يحبه كل من يجلس معه، ويتمنى ألا يفارقه في جلسته، لأن معاشرته طيبة، وألفته سريعة، وتنافسَ في ذلك أترابُه من شباب قريش والأنصار في المدينة المنورة، واتخذوه قدوة لهم، فهو الشاب الوسيم، ذو النسب الشريف، والمكانة الكبيرة، ومع ذلك، لا يرونه إلا بسيطا متواضعا، مقبلا على التعلّم، والتعبد، زاهدا في الحياة ومباهجها، لا يسعى إلى اللهو واللعب، ولا يُفرط في الضحك والمزاح.

أما الشيوخ وكبار الصحابة فكانوا يقدّرون خصاله، ويشيدون بسماته الطيبة، ويقولون: لا عجب في خلقه، فقد تربّى في بيت النبوة.

وكان عامة الناس يتمنون رؤيته ماشيا بينهم في طرقات، فهو شبيه جده النبي، فإذا سار في حاجة له، التفّوا حوله، يحاورونه، وهو يبشُّ في وجوههم، ويمتعهم بكلامه العذب الطيب.

لقد بلغ الحسن بن علي من شرفا ومكانة عالية بين الناس، فإذا جلس أمام داره، على بساط ممدود، كان الناس يمتنعون عن السير في الطريق احتراما له، ولم يأمرهم أحد بهذا، فيتعجب الحسن من هذا التقدير الكبير، فيمكث بعض الوقت، يحادث من يسأله، وسرعان ما يدخل بيته، ليعود المارّة للسير في الطريق.

وهو يسترجع دائما آخر ما قاله جده الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مرضه الأخير قبل الوفاة، حين دخلت عليه ابنته الزهراء، ومعها الحسن والحسين، وقالت له:

- يا رسول الله، هذان ابناكَ، فورّثهما شيئا.

وبالطبع لم تطلب فاطمة مالا ولا متاعا إرثًا لابنيها، وإنما أرادت بعضا من بركات الرسول ونفحاته لابنيها. فأجابها الرسول:

- أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فإن له جراءتي وجودي.

وهذا يفسر المهابة الكبيرة التي كان يجدها الحسن في نفوس الناس، حتى إن معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) وهو خليفة للمسلمين، يقول لجلسائه:

- والله إنني أهاب الحسن وأخشاه.

***

ويستغرب الناس من خاتمه الشريف الذي كان يختم به على رسائله وكتبه، ويقضي حوائجه، فقد نقش عليه عبارة واحدة تحت اسمه الشريف:

(العزة لله)

فكان كل من يراها يتعجب، أينقش الحسن هذه الجملة؟ وقد نال من الشرف والمهابة الكثير. وهم لا يدركون مفتاح شخصيته الكريمة، ألا وهو التواضع لله، وابتغاء مرضاته، والزهد في دنياهم.

***

حياة بسيطة عاشها الحسن شابا، عنوانها الإيمان والهدى، ومصباحها القرآن والسنّة الشريفة، وطريقها فعل الخير والأمر بالمعروف.

وتدمع عيون من حوله، وهم يرونه إذا توضأ أو صلّى يصفرّ لونه وترتعد فرائصه من خشية الله.

وفي كل يوم له، إذا أصبح، يغدو إلى المسجد النبوي الشريف، واقفا على عتبته يدعو:

- إلهي، ضيفك ببابك يا محسن، قد أتاك المسيء، فتجاوزْ عن قبيح ما عندي، بجميل ما عندك يا كريم.

ثم يصلي في الجماعة، ويظل في نفس مكانه بالمسجد يردد أذكار الصباح، والتسابيح، ويتلو ما شاء من آيات الذكر الحكيم، حتى تطلع الشمس في السماء، فيصلي صلاة الضحى، ويخرج وخيوط الشمس تنشر ضوءها على جبال المدينة، وبدأت الأرجل تدب في الطرقات، وارتفعت الشمس تدريجيا، فيذهب إلى بيوت أمهات المؤمنين، زوجات جده (صلى الله عليه وسلم) فيستقبلنه بالبشاشة والحبور، يطوف على كل واحدة، يناديها بالسلام، ويحادثها بالبرّ، ويهدي إليها ما رزقه به الله من خيرات، ثم يذهب إلى بيته، فيباشر أحوال أهله وأولاده، يقضي حوائجهم، ويساعدهم في شؤونهم.

***

وإذا علا صوت المؤذن بآذان الظهر، يلحق الحسن بالمسجد النبوي، يصلي الظهر، ويتخذ مجلسه، مستندا إلى جدار بالمسجد، حيث يلتف الناس حوله، ينصت لهم، ولأسئلتهم،

فهناك من يسأله طالبا المزيد من العلم الشرعي، فيجيبه الإمام الحسن، مستفيضا في الإجابة، بما يشفي غليل السائل، ويروي ظمأه للمعرفة في تفسير آيات القرآن، أو يذكر بعض وصايا الرسول، أو قضايا الفقه والشريعة.

وهو في كلامه، لا يذكر لفظا جارحا، يؤذي من يسمعه، أو يغتاب أحدا أو يذم فردا، بل ينطق بالخير، وينكر الشر، في أرق لفظ، وأعذب بيان، مشيدا دائما بجده الرسول، وأبيه علي، وأمه الزهراء، وأخيه الحسين، وأخته أم كلثوم، وسائر آل البيت الكرام.

فإذا جاءه من يشكو إليه خلُقا أو معصية، يبتسم الحسن في وجهه، وينتحي به جانبا، ويهمس له ببعض الآداب، التي تجنبه ما يعانيه من سوء خلق، وفساد سلوكيّ، في حرص على كتمان سره، وستر فعله.

وما إن ينفضّ الناس من حوله، حتى يتلفت في جنبات المسجد، باحثا عن صحابة جده الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فيسرع إليهم، مقبلا رؤوسهم، مشاركا في جلساتهم، وآذانُه متشوقة للمزيد من علمهم، ونفحاتهم.

وإذا اجتمع مع أولاده وأبناء أخيه الحسين، كان يوصيهم:

- تعلّموا العلم، فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه، وضعوه في بيوتكم. فمن لم يستطع منهم أن يحفظ العلم ويعيه في عقله وقلبه، فعليه أن يكتبه ويسجله، ويضع ذلك في بيته، حتى يقرأه ويطالعه من آن لآخر.

واعتاد الحسن دائما أن يروي الأحاديث التي سمعها من جده الرسول، وما سمعه أخوه الحسين، وما سمعه من أمهات المؤمنين مثل السيدة عائشة رضي الله عنها، وكان أبناؤه، وأبناء الحسين يروون ما سمعوه من عمهم الحسن خاصة الإمام زين العابدين، وعبد الله بن الحسين، والباقر بن الحسين.

***

وقد كان فقيها، عالما بسنة جده المصطفى، حافظا الكثير من أحاديثه، وقد جاء رجل إلى أخيه الحسين، وطلب منه أن يساعده في حاجة له، ولكن الحسين كان معتكفا في المسجد، فقال له:

- يا أخي، لولا اعتكافي لخرجت معك، فقضيت حاجتك.

فخرج الرجل من عنده، وذهب إلى الحسن، فذكر له حاجته، فبادر الحسن ومشى مع الرجل لقضاء حاجته، حتى أنجزها، فحكى له الرجل مقولة أخيه الحسين، فقال الحسن مسترجعا حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم):

- لقضاءُ حاجة أخٍ لي في الله، أحبُّ إليّ من اعتكاف شهر.

فقضاء الحاجات للناس فيها من إدامة الحب بينهم، وإشاعة الإخاء بين المسلمين ما يعلو فوق سنّة الاعتكاف.

***

السخاء والكرم أبرز سمات الإمام الحسن، كان يعطي من يطلب منه ومن لا يطلب، إذا كان معه مال، سارع بإنفاقه في أوجه الخير، يبحث عن الفقراء، ويذهب إليهم، وما إن يروه حتى تتهلل وجوههم بالبشر، فرؤية الحسن تعني مزيدا من البذل، وسخاء في العطاء، وتمتعا برؤية حفيد المصطفى.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد جعل عطاء الحسن وأخيه الحسين خمسة آلاف درهم، مثلهما مثل أهل بدر الذين حضروا الغزوة الأولى للإسلام، وقال: إنهما سبطا رسول الله، فلنكرمهما.

ومع هذا، كان الحسن غير عابئ بهذا العطاء السخي، دائم الإنفاق مما يأتيه، لا يقول لأحدٍ سأله حاجة: لا، قط.

كما اعتاد عادة طيبة ألا وهي مقاسمة الله في ماله، مثلما فعل عمر بن الخطاب عندما تصدق بشطر ماله (رضي الله عنه) حيث يخرج نصف المال صدقات وزكوات لله تعالى، وأعجبه هذا السلوك، فإذا أراد شراء شيء، كان يشتري منه اثنين، يتصدق بواحد، ويحتفظ بالثاني، حتى أنه كان يعطي نعلا ويمسك نعلا آخر.

***

وأخطأ ذات مرة أحد غلمانه (عبيده)، فأمر الحسن بعقابه، فقال الغلام:

- يا مولاي، إن الله قد مدح قوما وأنت منهم، فقال تعالى: { والكاظمين الغيظ}

فقال الحسن: خلّوا سبيله، ولا تعاقبوه.

فأكمل الغلام طامعا في كرمه:

- وقال سبحانه: { والله يحب المحسنين }.

قال الحسن: أنت حرٌ لوجه الله، ولك من المال كذا.

وهكذا، نرى آيات القرآن تتحقق في خلق الحسن، فهو يكتم غيظه ثم يعفو عن العبد، ويتحول الغيظ إلى عتق ثم منحة مالية.

***

وإذا وجد تراكما في المال عنده، وبداية لثروة، قد تهتز نفسه بها، ويشعر أن الدنيا مقبلة عليه، فيخاف أن يغوص فيها، فيسارع إلى التنازل عن المال كله للفقراء والمساكين، فيسعد قلبه عندما وهو يجد ذاته متساوية فيما تملك مع بسطاء المسلمين، لم يكتفِ بهذا مرة، بل أخرج ماله كله مرتين.

وقد سأله بعض الناس متعجبين من جوده الوفير:

- لأي شيء نراك لا ترد سائلا، وإن كنتَ على فاقة (أي في حاجة).

أي: كيف يعطي من يطلب منه وقد يكون هو ذاته محتاجا؟

يرد الحسن بهدوء، وبرضى نفس، وثبات إيمان:

- إنّي لله سائل، وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائلا، وأرد سائلا، وأن الله تعالى عوّدني عادة، عوّدني أن يفيض نعمه عليّ، وعوّدته أن أفيض على الناس، فأخشى إن قطعت العادة يمنعني العادة.

وأنشد بيتين:

إذا ما أتاني سائل قلتُ مرحبا، بمن فضلهُ فرضٌ على معجلْ

ومن فضله فضل على كل فاضلٍ، وأفضل أيام الفتى حين يسألْ

ما أروع هذا الخلق! وما أبلغ كلمات الحسن! إنه يقرر حقيقة مهمة، فهو لا يرد من يطلب منه حاجة، لأنه ببساطة طالب حاجة من الله، وقد اعتاد مع الله سبحانه وتعالى إذا رزقه بمال أن يعطي الفقراء منه بكرم، فيخاف إن أمسك مما أعطاه الله أن يغضب الله عليه، ولا يغدق عليه من نعمه.

وبلغ به الكرم، أنه كان يشتري البستان من ملاكه، ويدفع لهم الثمن، فإذا علم أنهم في حاجة إليه، ردّه إليهم مرة ثانية بلا مقابل، ولا يسترد ما دفعه.

ومرّ الحسن يوما ببعض بساتين المدينة المنورة، فرأى أمام أحد البساتين عبدًا أسود بجانبه كلب، بيده رغيف خبز يأكله، فتوقف عن السير، وتطلع إلى ما يفعل العبد ؛ فقد كان يأكل لقمة، ويعطي الكلب لقمة أخرى، إلى أن أنهى الرغيف. فتقدم الحسن منه، وسأله:

- لماذا قاسمتَ الكلب رغيفك؟

فأجاب العبد، وقد بان الإيمان في وجهه:

- استحت عيناي من عيني الكلب، أن آكل أنا ولا يأكل هو.

فأطرق الحسن، ثم قال:

- غلامُ من أنتَ؟،

- أنا غلام أبّان بن عثمان.

- وهذا البستان، من يملكه؟

أجاب الغلام: لمولاي أبان.

فقال الحسن بحنو، وقد عزم أمرا:

- أقسمت عليك ألا تترك مكانك، حتى أعود إليك.

ثم ذهب الحسن إلى مولاه " أبان "، فاشترى العبد والبستان، ثم عاد إلى العبد الذي ظل مكانه جالسا دون حراك، فقال له:

- قد اشتريتك يا غلام.،،، فانتبه الغلام، ووقف، وهو يقول:

- السمع والطاعة لك يا مولاي الحسن.

قال الحسن بابتسامة عريضة:

- وقد اشتريت هذا البستان أيضا، وأنت حرٌ لوجه الله، والبستان هبة مني إليك.

فتأثر العبد، ولم يصدق أنه نال حريته، وقال:

- يا مولاي، قد وهبتُ أنا البستان الذي أعطيتني إياه إلى الله سبحانه.

فقد تصدق هذا العبد الصالح بالبستان في ساعته، شكرا لله تعالى.

***

وكان الحسن يرضى بأي طعام يقدم له. ذات مرة، كان الحسن ومعه أخوه الحسين في بستان لصديق لهما يدعى "مدرج بن زياد "، فطافوا جميعهم بالبستان، ثم جلسوا في نهاية تطوافهم إلى شاطئ ساقية، فقال الحسن:

- يا مدرك، أعندك غذاء؟

فقال مدرك: نعم، لقد خبزنا الخبز. وأسرع بإحضار بعض أرغفة الخبز، وملحا مجروشا، وإناءين بهما بعض البقل، فأكلوا منه، ثم قال الحسن:

- يا مدرك، ما أطيب هذا.

فتعجب مدرك ؛ فالطعام بسيط، والحسن وشقيقه أكلا حتى شبعا.

وبعد قليل، فوجئ مدرك بخادم الحسن يقف على باب البستان، حاملا طعاما طيبا كثيرا، يضعه بين أيديهم، فيقول الحسن:

- يا مدرك، اجمع لي غلمان البستان.

فنادى مدرك عليهم، فأقبلوا، فدعاهم الحسن إلى الطعام، فجلسوا وراحوا يأكلون والحسن واقفا يراقبهم، فقال مدرك: ألا تأكل؟ هذا طعام طيب.

فأجابه الحسن مبتسما: طعامك أشهى عندي من هذا.

***

وقد جاءه رجل يطلب منه صدقة، ففتّش الحسن فيما معه، فلم يجد، فاستحيا أن يرد الرجل، ففكّر لحظات، حتى هداه تفكيره إلى أن قال للرجل:

- ألا أدلك على شيء يحصل لك منه البرّ؟

أي أدلك على طريق للخير، إذا فعلته. فسارع الرجل بالرد:

- ماذا؟ قال الحسن:

- إن ابنة خليفة المسلمين ماتت، فاذهب إليه وقل له: الحمد لله الذي سترها بوقوفك على قبرها، ولم يهتكها بوقوفها على قبرك.

وكان الخليفة هو معاوية بن أبي سفيان، فالمقولة بليغة عميقة، تعني أن الله أكرم الخليفة بوفاة ابنته في حياته، فترحّم عليها، وسترها عندما وقف على قبرها، ليستغفر لها، ولم تقف هي على قبره بنفسها تبكي عليه.

فلما ذهب الرجل إليه في قصره، وأخبره بهذا الدعاء، خرج معاوية عن حزنه وأمر للرجل بجائزة، ثم سأله:

- بالله عليك، أكلامك هذا؟

فقال الرجل بصراحة:

- بل كلام الحسن بن علي.

فقال معاوية معترفا: - صدقت، إنهم معدن الفصاحة.

***

قلبه كان معلقا بالبيت الحرام في مكة المكرمة، لذا كان أدوم الناس على الحج والعمرة، وقد واع جيدا لمقولة ابن عباس (رضي الله عنهما):

- ما ندمت على شيء فاتني في شبابي إلا أنّي لم أحج ماشيا.

فالتزم الحسن بهذه المقولة، وأراد وهو شاب أن يجعل جهده وعزمه في المسير إلى بيت الله الحرام حاجا، واعتاد على فعل ذلك كل عام تقريبا، حيث يسير في قوافل الحج على قدميه وغيره يعتلي أظهر البعير، راغبا أن تتعفّر قدماه بالثرى في مقصده إلى المناسك المقدسة، وقد فعل ذلك خمس وعشرين مرة محتسبا الأجر والثواب عند الله.

و ذات يوم، كان في الطواف، فطلب منه رجل قضاء حاجة ضرورية، فترك الحسن الطواف، وخرج من المسجد الحرام، وقضى حاجة الرجل، ثم عاد بعد قليل، فذهب إليه رجل حاسد للرجل الذي ذهب معه، وسأله:

- يا أبا محمد، تركت الطواف، وذهبتَ مع فلان؟

فأجابه الحسن:

- كيف لا أذهب معه، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: من ذهب في حاجة أخيه المسلم، فقُضَيت، كُتِبَتْ له حجةً وعمرة، وإن لم تقضِ كتبت له عمرة. فقد اكتسبت حجة وعمرة، ورجعت إلى طوافي.

***

عاصر الحسن خلافة أبي بكر (رضي الله عنه) صبيا، وكم كان يغدو مع أبيه، ليشاهد الصديق وهو يخطب في الناس، أو يعدّ الجيوش لقتال المرتدين عن دين الله ومواصلة الفتوحات في بلاد العراق والشام، وأعجب كثيرا بقادة الجهاد العظام الذين حملوا ألوية المسلمين، وخاضوا غمار المعارك، فكان معجبا بخالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، شرحبيل بن حسنة وغيرهم.

فلما جاءت خلافة عمر بن الخطاب، كان الحسن في أول مدارج الشباب، سعيدا بما وصلت إليه جيوش المسلمين، حيث فتحت أرض السواد في العراق ومزّقن ملك كسرى في بلاد فارس، وضمت بلاد الشام كلها وأجبرت الروم على الانسحاب إلى داخل بلادهم في آسيا الصغرى، وانطلقت إلى مصر ثم برقة وفزّان في شمال أفريقية، لتقلّم أظافر الروم، وتطردهم نهائيا عنها. وكان يود أن يشارك هؤلاء المجاهدين في قتالهم، فهو يعلم عظم ثواب الجهاد، وأنه سنام الإسلام، ولكن ابن الخطاب أبى أن يدفع به وهو في هذه السن المبكرة.

وكم كان الحسن سعيدا، وهو يشاهد عمر يخطب شقيقته " أم كلثوم "، ويمهرها بأربعين ألف درهم، ويتباهى بأنه التحق بنسب الرسول وأهل بيته، ويشهد صحابة رسول الله على هذا الزيجة المباركة. وسعد الحسن أكثر عندما وجد شقيقته تلازم الخليفة عمر في مساعداته للفقراء والمحتاجين ليلا ونهارا.

***

ولما تولى ذو النورين " عثمان بن عفّان " الخلافة بعد عمر (رضي الله عنهما)، كان السبطان تواقينِ للجهاد، وهم يسمعون الأخبار عن وصول جيوش المسلمين إلى تخوم الهند، وآسيا الصغرى، وتونس، والسودان، ويسمعون عن تفوق المسلمين في المعارك البحرية، رغم أن العرب أهل بر لا يجيدون ركوب البحر، إلا أنهم حققوا الانتصار العظيم في معركة ذات الصواري في البحر المتوسط، حينما استطاعوا قهر أسطول الروم، بعدما ربطوا سفنهم بسفن الأعداء، ومن ثم حوّلوا المعركة إلى ساحة قتال.

فألحّا السبطان على الخليفة عثمان للخروج للجهاد، ووافق الإمام علي والدهما، فانطلقا مع جيوش المسلمين مرات عدة.

***

كان الحسن في جهاده نِعمَ الجندي الذي لبّى نداء الله، مطيعا أحكام خليفة رسول الله، حيث شارك الحسن وأخوه الحسين في جيش المدد الذي أرسله أمير المؤمنين عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) سنة (٢٦) هـ، لمؤازرة ونجدة عبد الله بن أبي السرح وهو يجاهد في شمال أفريقية، ناشرا الإسلام في هذه الشعوب التي عانت كفرا وظلما وضياعا. وكان الحسنان مثلهما مثل كل الجنود، لا يتميزان بينهما بشيء، يقدمان دون خوف ولا وجل، لشق صفوف الأعداء.

وبعدما عادا إلى المدينة المنورة، وقضيا بعض الوقت، استعان بهما الخليفة عثمان للذهاب مع المجاهدين في منطقة طبرستان سنة (٣٠) هـ

وكان بسالتهما العظيمة، في الفتنة الكبرى، حين أحاط المتمردون بمنزل الخليفة عثمان، فوقفا بسيفيهما، يمنعان هؤلاء الثوار من الدخول، فلم يستطيعوا مهاجمة عثمان من الباب، فتسوروا عليه الأسوار، حيث استشهد، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

***

وهو في عباداته دائم المراقبة لله تعالى، فإذا تعبّد بكى وعلا نشيجه، وإذا ناجى ربه توسّل واستعطف الله أن يغفر ذنبه ويلحقه بالصالحين. فاقترب منه أحد الناس، يسأله متحيرا:

- أتخاف عذاب الله وعندك أسباب النجاة؟ أين رسول الله وشفاعته (صلى الله عليه وسلم) ورحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فتملأ وجه الحسن علامات التواضع والذل لله تعالى ويقول:

- أما أنّي ابن رسول الله، فالله تعالى يقول: { فإذا نُفِخ في الصور فلا أنسابَ بينهم). أي: لا قيمة للنسب يوم القيامة، كلٌّ إنسان يأتي بعمله وما قدّم.

ويواصل الحسن كلامه:

- أما الشفاعة، فهو سبحانه يقول: { من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه }

أي: فلا شفاعة لجده الرسول إلا بإذن الله سبحانه.

- وأما الرحمة التي وسعت كل شيء، فالله تعالى يقول: { فسأكتبها للذين يتقون } (أي الرحمة بيد الله يعطيها من يشاء)، فكيف الأمان يا أخا العرب؟

لذا، خصّه الناس بألقاب كثيرة، أشهرها: التقي، الطيب، الزكيّ، الوليّ، السبط، السيد، أمير المؤمنين. واحتفظ بكنيته التي أطلقها عليه جده الرسول يوم مولده: أبو محمد .

وقد أثبتت السنون مدى شوق الناس لعلم الحسن، فهذا رجل يمرّ بأهل البصرة، فراح يسألهم: من سيّدكم؟،،،

قالوا: الحسن بن عليّ سيدنا.،وكان الحسن مقيما فيها وقتئذ.

فتعجب الرجل، لأن الحسن لم يكن وقتها حاكما لهم ولا صاحب جاه، فعاد للسؤال: وبم سادكم؟

قالوا: احتاج الناس إلى عمله، واستغني هو عن دنياهم.

فقال الرجل بحكمة: ما أحسن هذا!

***

كان تعلّق الإمام علي بأبنائه عظيما، خاصة سبطي الرسول، فكان لا يدفعهما كثيرا للجهاد، خوفا أن يستشهدا، وينقطع بموتهما نسل المصطفى، فيؤخرهما، ويقول لأصحابه أن يحافظوا على الحسنين:

- املكوا عليّ هذين لئلا يهدّاني (يتركاني)، لأنني أخشى- أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله في الأرض.

ولأنه الإمام علي كان يعلم سماحة الحسن وكرمه، فقد وقف خطيبا بين الناس في المسجد، قائلا:

- إن ابن أخيكم الحسن، قد جمع مالا، وهو يريد أن يقسّمه بينكم.

فوقف الحاضرون، وتزاحموا على الحسن، فقال الحسن برفق:

- إنما جمعته للفقراء.

فجلس نصف الناس، لأنهم كانوا غير محتاجين، ولا مجال لادّعاء الفقر، وهم يعلمون أن كل فرد يأخذ حقه كما أوجب الإسلام، والتزم بذلك الخلفاء الراشدون أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم علي بن أبي طالب، عندما تولّى الحكم.

راح الحسن يوزّع ما معه من مال، بالعدل والقسطاس، وانصرف الناس راضين، شاكرين الخليفة عليا، وابنه الحسن.

***

وقد اعتاد الإمام علي بن أبي طالب أن يزور أبناءه، وفي شهر رمضان المعظّم، يقسّم زياراته على ابنيه وابن أخيه، فيفطر عند الحسن يوما، وعند الحسين يوما، وعند ابن أخيه عبد الله بن جعفر يوما. وكثيرا ما كان يجمعهم في مجلسه ومعهم ابنه الثالث محمد، ينهلون من علمه بأسئلتهم إليه وخواطره إليهم، كما يشبع من وجودهم معه.

وكان الناس يدركون عمق الرابطة بين عليّ وأبنائه، فتقدّم أحد الناس بهدية لكل من الحسن والحسين في حضرة والدهما عليّ، ولم يهدِ شيئا لأخيهما محمد، فأنشد الإمام علي بيتا شعريا، مخاطبا ابنه محمدا حتى لا تتأثر نفسيته بذلك:

وما شرُّ الثلاثة أم عمرو، بصاحبك الذي لم تصبحينا

ففهم الرجل الإشارة، وأدرك مراد البيت الشعري، الذي يساوي بين الأبناء الثلاثة، فأسرع بإحضار هدية وتقديمها إلى محمد.

***

ولهذه الأسباب الكثيرة، كان الناس يتبارون ليزوجوا الحسن من بناتهم وأخواتهم، فكثر زواجه، وتشهد كل زوجاته أن معاملته أساسها الإحسان واللطف، إلا أن أباه علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) وكان يعيش في الكوفة، ساءه هذه الزيجات الكثيرة وأيضا طلاق ابنه لبعض نسائه، فطلب من منادي الكوفة أن يخبر الناس ألا يزوجوا الحسن. فرد عليه الناس:

- بل نزوجه، فما رضي أمسك، وما كره طلق.

فالزواج في هذه الأيام كان وسيلة لترابط العائلات والقبائل، وسببا في إدامة الحب بين الناس، وهذا ما كان يحرص عليه الحسن.

فعندما خطب ابنة منظور الفزاري، قال له والدها:

- والله أني لأنكحك (أزوجك منها)، فإني لأعلم أنك أكرم العرب بيتًا، وأكرمهم نسبا.

فتزوج الحسن منها، ثم اختلف معها على أمر فغضب منها، وطلقها، ثم أرسل إليها عشرة آلاف درهم وزقاق من عسل، فذهب الغلام، وأعطاها فقالت له شاكرة: بارك الله فيه وجزاه خيرا، إنه حبيب مفارق.

***

نِعمَ الناس أنت يا الحسن، بخلقك الرفيع قدّمت نموذجا عمليا راقيا، مطبقا تعاليم القرآن، وسنة جدك المصطفى، وعلم أبيك عليّ، وورع أمك فاطمة، وزهد صحابة رسول الله الأبرار.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
جامع المسلمين وموحّدهم

عاصر الحسن خلافة والده الإمام علي بن أبي طالب، وآزر أباه في صراعاته مع جماعات الخوارج، والاضطرابات التي عصفت بالمسلمين، وجعلت الناس منقسمين بين معسكرين، الأول مؤيد لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في بلاد الشام، والذي كان يطالب بالقصاص من قتلة عثمان بن عفّان (رضي الله عنه)، الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين الذي قُتِل غيلة وحقدا من جماعات الفتنة، فاجتمع معظم الصحابة وجموع الناس، وبايعوا الإمام عليا خليفة للمسلمين، وقد آل الإمام علي على نفسه أن يعمل أولا على وحدة الصف المسلم في مختلف البلدان، ويسعى جاهدا لتنفيذ حكم الله فيمن قتل عثمان، وخاض في سبيل ذلك معارك، وشهد مواقع، أبرزها واقعة " الجمل " ومعركة "صفين "، وكان ابنه الحسن إلى جانبه، لأنه يعلم أن الحق معه، ونهجه هو الأسلم في سياسة المسلمين، رغم اختلاف بعض الناس مع أبيه " عليّ "، واتخذ في سبيل ذلك مدينة الكوفة عاصمة للخلافة، لكثرة أنصاره من ناحية، وكي يكون قريبا من مشعلي الفتن.

***

حدثت معركة " الجمل " بالقرب من البصرة، وكان القتال بين جيش الخليفة الإمام عليّ والصحابة الذين بايعوه وناصروه، وبين بعض المسلمين الذي عارضوه بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان على رأسهم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنهم جميعا، والفتنة عاصفة بقلوب المسلمين، وتفرقوا على إثرها، وكم كان الإمام علي حزينا وهو يخوض حربه مع هذه الفئة، ولكنهم اضطروه له. وقد جعل

ابنه الحسن قائدا على ميمنة الجيش، أخوه الحسين على الميسرة، ويحمل ابنه الثالث محمد بن الحنفية والذي حمل لقب أمه التي كانت من قبيلة حنيفة، فيعطي الراية لمحمد، وكان معروفا ببأسه الشديد، حتى إنه ليستطيع ليّ الحديد فلا يعدله غيره، فيتقدم محمد الصفوف ويقاتل ببسالة، والحسنان في المؤخرة، ويعجب الناس ببسالة محمد، إلا أن بعض ضعاف القلوب والدساسين تهامسوا لمحمد:

- إن أباك يدفعك للحرب، ويحفظ الحسن والحسين.

فكان محمد يبتسم، ويقول بنفس طاهرة، وعقل راجح رشيد:

- إنما هما عيناه، وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

لله درّك يا محمد! وأجْملْ بردّك!

وبعد انتهاء القتال، وانتصار جيش الإمام عليّ، وهزيمة معارضيه، قال الإمام علي حزينا للحسن وهو يرى آلاف المسلمين قد قتلوا:

- يا بني، ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاما.

فرد عليه ابنه، وكان متألما أشد الألم من هذه الفرقة التي عصفت بالصف المسلم، وأدمت القلوب:

- يا أبتِ، لقد كنتُ أكره هذا.

وقد أكرم الإمام علي السيدة عائشة (رضي الله عنها)، حيث قالت له:

- يا ابن أبي طالب، ملكت فأسجح (أي تعامل بالحسنى).

فقال لها الإمام علي: غفر الله لكِ.

فردّت عليه: وغفر لك.

وأعاد عليٌّ عائشة رضي الله عنهما إلى المدينة المنورة، حيث نـدمت كثـيرا على خروجهـا في أحداث هذه الفتنة، وكانت تستغفر لذلك.

***

وحين وجد الإمام " عليّ " بعض أهل العراق قـد أيّـدوا المعارضـين له في مقتـل عثمـان بـن عفان رضي الله عنه، وأنه لم يتخاذل عن نصرته، وسيتتبع مـن قتلـوه، فـآثر أن يحـاورهم بالحسنى، وأرسل لهم ابنه الحسن ومعه عـدد مـن الصـحابة الكـرام وهـم: عبـد الله بـن عباس، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد رضي الله عنهم، وجعل معهم كتابا يروي الوقـائع الحقيقية في حادثة قتل عثمان ودور دعاة الفتنة فيها، فوقف الحسن وسـط النـاس، وقـرأ الكتاب، فهدأت نفوس الناس واقتنعوا بما فيه.

وكان والي العراق وقتئذ الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري، وقد خرج لاستقبالهم، وسـمع كلام الحسن، فأطرق يفكر، فاقترب منه الحسن وسأله:

- يا أبا موسى، لمَ لا تشجّع النـاس على وتجعلهـم يقفـون معنـا حـتى تجتمـع كلمـة المسلمين في العراق والشام والجزيرة ومصر على حكم الإمام علي؟

ويردف الحسن بصدق:

- فوالله يا أبا موسى، ما أردنا إلا الإصلاح، ولا مثل أمـير المـؤمنين عليّ يخـاف على شيء، ولا يريد ملكا ولا زعامة.

فتأثر أبو موسي، وأجاب:

- صدقت يا سبط رسـول الله، بـأبي أنـت وأمي، ولكـن المستشـار مـؤتمن، وقـد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: " إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير مـن الراكـب، وقـد جعلنـا الله إخوانا، وحرّم علينا دماءنا وأموالنا ".

فحجة أبي موسى أنهم في فتنة، ويجب على الجميع أن يتجنبها، ويسكت عنها، وهذا ما جعل الصحابي الجليل عمار بن ياسر يقول:

- أيها الناس، إنما قال لأبي موسى وحده وليس لكل الناس، قال له الرسول: أنت فيها قاعدًا خير منك قائما.

أي أن كلام النبي كان موجها إلى أبي موسى الذي كان يسمعه فقط.

وهنا، انبرى الإمام الحسن، ليوضح الأمر كله للناس، ويمتدح والده الإمام علي، الذي اختاره الصحابة الكرام، فقال:

- أيها الناس، إنا جئنا ندعوكم إلى الله، وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقّه من المسلمين، وأعدل من تعدلون، وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون، من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة، ولم تقعد به السابقة، إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين، قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة (فضيلة وحسنى)، إلى كل من كفى الله به رسوله، والناس متخاذلون، فقرُبَ منه وهم متباعدون، وصلّى معه، وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معهم وهم محجمون.. "

***

استشهد الإمام علي بن أبي طالب غيلة وحقدا على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم، قتله وهو يصلي بسيف مسموم، واجتمع الناس وبايعوا ابنه الحسن خليفة للمسلمين، فلما تولى الحسن الخلافة، رأى حال دولة الإسلام التي كانت تشمل مصر والشام والعراق وفارس والجزيرة العربية كلها، وقد انقسمت إلى معسكرين متناحرين: الأول يناصر خلافة علي ثم ابنه الحسن في الكوفة، والثاني يناصر معاوية في دمشق بالشام، فظل طيلة سبعة أشهر، يفكر ويمعن التفكير، وهدفه كيف يحقق وحدة

المسلمين، ويعيد دولتهم قوية منيعة، ويمنع الاقتتال الداخلي بينه وبين جند معاوية، ففكر في التنازل لمعاوية ليكون هو الخليفة، ليحقن دماء المسلمين، ويكون ذلك بصلح، يشهد عليه الصحابة والناس جميعا، فاستشار أهله والمقرّبين منه، فانقسموا إلى مؤيد ومعارض، فاتجه إلى ابن عمه عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، فقال له:

- نِعمَ الرأي يا أبا محمد، أدعو الله أن يثبتك، ويلهمك الحق.

ثم اتجه الحسن إلى شقيقه الحسين، وقال له:

- أي أخي، إني رأيت رأيا، وأحب أن تتابعني عليه.

ولم يكن الحسين عالما بالأمر، فتساءل: وما هو؟

- رأيت أن أذهب إلى المدينة فأنزل فيها وأعيش، وأترك أمر الخلافة والحكم لمعاوية، فقد طالت الفتنة بين المسلمين، وسفكت الدماء، وقطعت الأرحام، وعطلت السبل، وعطلت الثغور (الموانئ).

فغضب الإمام الحسين، واشتد غضبه، وقال:

- أعيذك بالله أن تكذّب عليّا في قبره، وتصدق ما يقول معاوية؟

فتغير وجه الحسن، وتضايق وهتف:

- يا حسين، كلما أريد أمرا تخالفني.

فترفق الحسين بأخيه، وقال بأدب شديد:

- -أنت أكبر ولد عليّ، وأنت خليفتي وحاكمي، وأمرنا لأمرك تبع، فافعل ما بدا لك.

فابتسم الحسن، ومضى في أمره، حيث أرسل كتابا إلى معاوية، وعرض عليه الأمر، وشروط الصلح، التي اشتملت أن يحكم المسلمين بكتاب الله وسنّة رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم)، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده، وأن يترك الحكم من بعده

للمسلمين، يختارون ما شاءوا، وألا يؤذي معاوية أحدا من أصحاب رسول الله أو أصحاب علي، ومن ناصرهم، فأراد معاوية أن يستثني البعض مثل قيس بن سعد، إلا أن الإمام الحسن هدده بالعدول عن الصلح، فاضطر معاوية إلى القبول على الفور، وكان تنازل الحسن لمعاوية في سنة (٤٠) هجرية، وسمي لذلك عام الجماعة.

وقد حضر معاوية إلى الكوفة، وتقابل مع الإمام الحسن، واتفقا بشكل نهائي على الصلح، ثم وقف الإمام الحسن خطيبا، وهو يقول:

" إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور(الظلم)، ذاك رجل ملك ملكا تمتع به قليلا، ثم تنخّمه. تنقطع لذته، وتبقى تبعته (آثاره) ".

وقد حاول زياد بن معاوية أن يسيء إلى أصحاب الإمام الحسن، فكتب الحسن كتابا سريعا إلى معاوية، الذي استجاب له، ومنع ابنه زياد من الظلم.

وراح صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسترجعون حديث المصطفى عن الحسن، الذي صار معجزة متحققة أمام أعينهم، حين قال:

" إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"

***

كان الحسن يتنقل بين مدينة الكوفة حيث اتخذها والده عاصمة لحكمه، وبين المدينة المنورة، حيث أمهات المؤمنين، وصحابة جده الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكما كان كريما كعادته، فإنه كان أكرم مع معارضي أبيه، خاصة القادمين من بلاد الشام، والمتأثرين برأي معاوية.

فهذا رجل من أهل الشام، قدِم إلى المدينة، وراح يتجوّل في طرقاتها، فشاهد رجلا، تبدو المهابة والوقار والشرف في هيئته، فسأل الناس:

- من هذا؟،،،فقالوا: هذا الحسن بن علي.

فقال الرجل – وكان يكره الإمام عليا بشدة:

والله أحسد عليا أن يكون له ابن مثله.

فسمع الحسن كلامه، فقال له:

- أراك غريبا، فلو أردت أن نحمل عنك متعاك وحاجاتك، حملناك ؛ وإن استرفدتنا (طلبت مساعدة) رفدناك، وإن استعنت بنا أعناكَ.

فتفرس فيه الرجل، وفكّر مليا فيما قال، ثم شكر الحسن، وعاد إلى بلاد الشام وهو يقول لمن معه، وقد تغيّر قلبه:

- والله لقد انصرفت من عند الحسن، وما في الأرض رجل أحب إليّ منه.

***

وجاء إلى المدينة المنورة رجلٌ وكان من كارهي الإمام علي، ومن المهاجمين له، وقد ضاع ماله، وفقد بعيره، فاشتكى لأهل المدينة حاله، فدلوه على الحسن، فذهب إليه الرجل وشكا فقره إليه، فأعطاه الحسن طعاما ومالا وبعيرا.

فلما علم الناس بما فعل الحسن، قالوا متعجبين:

- أتاك رجل يبغضك ويبغض أباك، فأمرت له بزاد وراحلة؟

فنطق الحسن بحكمة:

- أفلا أشتري عرضي منه بذلك؟

أي أنه أعطاه، كي يعطيه درسا في الخير، لعله يمتنع عن سب علي والحسن.

***

وقال عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان:

" والله ما أحببتُ منذ علمتُ ما ينفعني ويضرني أن ألي أمر أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، على أن يراق في ذلك محجمة دم ".

أي قطرات يسيرة من دماء المسلمين، فوحدة الأمة أهم عنده من اختلاف قلوب المسلمين وتفرقهم وقتالهم على سلطان أو جاه زائل.

***

وقد جاء " مالك بن ضمرة " وكان من أشد المناصرين للحسن وأبيه عليّ، وغضب كثيرا من تنازل الحسن لمعاوية، فقال للحسن:

- السلام عليك يا مذل المؤمنين.

فرد عليه الحسن موضحا سبب تنازله:

- لا، ولكن كرهتُ أن أقتلكم على الملكِ.

أي تنازل حتى لا يتقاتل أتباعه من أجل الملك.

***

لقد تنازل الحسن عن الخلافة، لأنه رجل السلام بحق، فآثر السلام ابتغاء مرضاة الله، لا خوفا من الناس، ولا من الحرب.

وقد جاءه رجل يدعى المسيب الفزاري، وقال له:

- انقض الصلح الذي عقدته مع معاوية، وكن أنت الخليفة، وسيأتيك نبأ وفاة معاوية بعد حين.

أي يشير إلى أن الكثيرين لا يرضون بحكم معاوية، ويسعون إلى قتله.

فقال الحسن بطمأنينة:

- يا مسيّب، إني لو أردت الدنيا بما فعلت، لم يكن معاوية بأصبر مني في المعركة ولا أثبت مني عند الحرب، ولكني أردتُ صلاحكم وكف بعضكم عن بعض، فارضوا بقدر الله وقضائه، حتى يستريح برٌ، أو يستراح من فاجر.

فهو يشير إلى أنه قادر على القتال، وأكثر صبرا وثباتا فيه، ولكنه يفضّل مصلحة المسلمين العليا، ولمنع الفاجرين والمتآمرين.

***

ومرّ عام على تنازل الحسن لمعاوية، فذهب الحسن لزيارته، ونفسه طيبة وراضية، وكان معاوية جالسا في مجلس خاص، يضم المقرّبين منه، فجلس الحسن أمامه، ومعاوية في صدر المجلس يتحدث باستفاضة، واعترف خلال حديثه بأن الذي كان ينازعه في هذا الأمر هو الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقد شاء الله أن يجعله لمعاوية. ثم ابتسم معاوية للحسن، وقال له:

- بلغني أن عليك دينا؟

فأجابه الحسن مصدقا:

- إن لعليّ دينا،

ذلك أن الحسن كان كثير الجود والعطاء للفقراء، وهذا سبب لديونه الكثيرة.

تساءل معاوية: كم هو؟

فرد الحسن مؤكدا:

- مائة ألف دينار،

فقال معاوية برفق:

- قد أمرنا لك بعطاء ثلاثمائة ألف، مائة ألف للوفاء بدينك، ومائة ألف تقسّمها في أهل بيتك، ومائة ألف لخاصة نفسك (المقرّبين منك).

فخرج الحسن مكرّما، راضي النفس. وكان يزيد بن معاوية حاضرا الموقف كله، فسأل والده عن سبب إكرامه للحسن، فقال معاوية:

- إن الحق حقهم، فمن أتاك منهم فأكرمه.

***

وجاءت وفاة الحسن في العام (٥٠) هـ في المدينة المنورة، حيث دسوا له السم في الطعام، وقيل إن إحدى زوجاته فعلت ذلك، مقابل مائة ألف درهم من أحد أعداء الحسن. فقد جاءت الحادثة ذات يوم، حين خرج الحسن من بيته، وهو يتلوى من الألم في بطنه، فشاهده أخوه الحسين، فسأله، فأجابه الحسن بأنه قد شرب سما، فقال الحسين: ومن سقاك هذا السم؟

فقال الحسن: وما تريد منه؟ أتريد أن تقتله؟ إن يكن هو، فالله أشد نقمة منك، وإن لم يكن هو، فما أحب أن يؤخذ بي بريء.

فقد كان الحسن متشككا فيمن سمّه، وخاف أن يذكر اسمه، فينتقم الحسين منه بمجرد الشك، فامتنع عن ذكره، وترك الأمر بيد الله سبحانه.

وتم دفنه جانب أمه السيدة فاطمة الزهراء، وصلّى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة المنورة.

***

عند وفاة الحسن، وقف عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)، يقول:

- أول ذل دخل على العرب موت الحسن.

فقد ترك فراغا كبيرا، ومهابة عظيمة، ومكانة عليا، طالما افتخر بها المسلمون، وعززت ما في نفوسهم من عز وفخار.

أما مروان بن الحكم، وهو أحد ولاة بني أمية، الذين عارضوا عليّا وأبناءه، فقد بكى في جنازة الحسن، فقال له الإمام الحسين متعجبا:

- أتبكيه، يا مروان، وقد كنت تجرّعه ما تجرعه؟،أي تهاجمه بشدة.

فقال مروان بأسى:

- إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا،وأشار إلى الجبل.

أي أن مروان كان يهاجم الحسن، وهم يعلم أنه حليم، كريم، يغفر الإساءة، وأنه في حلمه يفوق الجبال.

***

رحم الله الحسن، سبط رسوله الكريم، حليم الأمة، وجامعها على كلمة واحدة، العطوف الكريم العالم الزاهد.

❊ ❊ ❊

سيرة ذاتية للمؤلف

الاسم : أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والنقد الأدبي والفنون

وباحث في الإسلاميات والحضارة، وقاص وروائي ومسرحي.

الإيميل : mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafaateia@gmail.com

الأعمال المنشورة:

أولا: الدراسات الأدبية والنقدية :

١) دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.

٢) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٣) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة الصحافة العربية، القاهرة،ط٢، ٢٠٢٣.

٤) الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٥) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.

٦) الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٧) الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٩) القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.

١٠) عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١) التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.

١٢) الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٣) أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٤) شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.

١٥) البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠

١٦) المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١٧) هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

١٨) فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

١٩) الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٢٠) الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.

٢١) منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٢٢) وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٣) الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٢٤) صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٢٥) المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٦) الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

٢٧) أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

٢٨) التطبيع الصهيوني العربي شفرات الخداع والتدليس، منشورات مركز الشرق للأبحاث والثقافة (ECR)، ٢٠٢٣.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

٢٩) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٣٠) نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٣١) شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة، بالقاهرة، ٢٠٠٢، نشر: مركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٣٢) طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٣) أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٣٤) نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٣٥) مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٣٦) قطر الندى، مجموعة قصصية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٣م.

٣٧) على متن محطة فضائية، رواية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٨) سفينة العطش، مسرحية للأطفال، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، ٢٠١٢م.

٣٩) أصدقاء في عالم الفضاء، رواية للفتيان، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: رواد فضاء الغد، أطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤٠) لكل جواب قصة، مسرحيات للأطفال، منتدى الأدب الإسلامي، الكويت، ٢٠١٤م.

٤١) سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

٤٢) حدث مألوف، قصص قصيرة جدا، دار شمس للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٣) جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٤) الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٥) البرتقالة في الزجاجة، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

٤٦) صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

الحسن بن علي

سبط النبي وريحانة أهل بيته

تأخذنا أحداث هذه الرواية إلى حياة الحسن بن علي (رضي الله عنه)، سبط (حفيد) الرسول (صلى الله عليه وسلم)، من ابنته فاطمة الزهراء، وزوجها الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم)، نتعرف طفولته، ومواقفه مع جده المصطفى، وعلاقته بشقيقه الحسين، وأمهات المؤمنين، والصحابة وعامة الناس، ونقرأ عن سماحة أخلاقه، وسمو سلوكياته، وتواضعه وعلمه.